١٤ ـ رحلة إلى الهند

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب

مدينة أكرا

سار بنا القطار والساعة ثمان وخمس وأربعون دقيقة من صباح السبت ثالث عشر جمادى سنة ١٣٦٦ هـ . وخامس بيسان سنة ١٩٤٧ م من دهلى إلى أكرا .

والمسافة بينهما زهاء أربع ساعات . واستقبلنا على محطة أكرا جماعة من بيت كنش لال أحد أعيان المدينة وأحد تجار الهند المعروفين فى القاهرة . وأردنا أن ننزل بفندق كبير هناك اسمه إمبريال . وبينما نجلس فى ساحة الفندق ننتظر جواب سؤالنا عن غرف فى الفندق ، جاء رجل هرم يحمل عصافير مرتبطة بخيوط ، فجلس إلينا وشرع يعرض أعاجيبه . رمى بحلقة فى الهواء وأشار إلى عصفور فأدركها فالتقطها قبل أن تقع على الأرض وردّها إليه . وأشار إلى عصفور آخر فطار إلى شجرة قريبة فقطف منها ورقة وجاء إلى صاحبه . ووضع بطاقات من بطاقات اللعب مقلوبة وذكر عدداً فأخذ عصفور يقلّب الأوراق حتى قلب البطاقة ذات العدد المذكور وأخذها بمنقاره وسلّمها إلى معلّمه . ثم جاء بأعواد عليها بكرة صغيرة فيها خيط ينتهى إلى دلو صغير وأشار إلى عصفور فشرع يمسك الخيط بمنقاره ويجرّه حتى يضمه تحت رجله ثم يأخذه كرة أخرى فيطويه تحت رجله حتى طوى الخيط وطلع الدلو فمدّ منقاره إليه وجذبه إليه كأنه يستقى ماء من بئر برشأ ودلو . فقلنا : إحدى عجائب الهند .

ولم نجد غرفاً بالفندق فسرنا إلى دار كنش لال فلبثنا إلى اليوم الثانى فى حفاوة وإكرام فاستحق المضيّفون ثناءنا وشكرنا

***

وأكرا مدينة يسمى باسمها إقليم . وهذا الإقليم وإقليم أوده يؤلفان ولاية كبيرة تسمى U. P. وهذا رمز لاسمها بالإنكليزية : Uvenited Provinees وتسمى فى الهند : ممالك متحدة .

والمدينة مثل دهلى ، ذات مكانة تجارية وحربية عظيمة . ويمرّ بالمدينتين كلتيهما نهر جمنه أحد أنهار الهند الكبيرة .

وقد عرف ملوك الهند حصانة هذه البقعة بمكانها من هذا النهر فاتخذوا مدينة أكرا حاضرة للملك أو إحدى حواضره .

وقد اتخذها السلطان اسكندر اللودى داراً للملك بدَل دهلى وهو من الأسرة اللودية التى تسلطت فى الهند من سنة ٨٥٥ إلى ٩٣٢ هـ . وإنما آثرها على دهلى حينما عرف غناءها فى ضبط الثائرين عليه فى الجنوب . فعظمت مكانتها من ذلك الحين .

ولما جاء إلى الهند الرجل المبقرى بابر ، وقد أسلفنا ذكره ، فتح أكرا سنة ٩٣٢ . وأخذ فيها أخذ من مبانيها الماسة المعروفة باسم كوه نور أى جبل النور . وفى أكرا آذَنَ بابرُ بأن فتحه الهند ليس غارة موقوتة ولكن ملكا مؤثلا . ولما ملك جلال الدين أكبر حفيد بابر بنى قلعة أكرا ، القلعة الحمراء التى تمتد أسوارها على نهر جمنة ميلا ونصفاً .

وازدادت المدينة وأرباضها منذ بنى أكبر قلعته ، بعجائب من أبنية السلاطين التيموريين بل بمفاخر من الحضارة الإسلامية وصناعاتها . ففى أكرا القلعة والتاج والمسجد ، وفى سكندرة مزار أكبر وآثار أخرى . وعلى مقربة من المدينة فتح بور سكرى وهى مزدحمة بآثار عظيمة رائعة .

مزار أكبر

خرجنا والساعة خمس مساء إلى سكندرة لنزور ضريح جلال الدين أكبر .

ولا يعرف روعة التوجه إلى زيارة ضريح أكبر إلا من عرف تاريخ هذا الرجل الذى لا يعرف تاريخ الإسلام بل تاريخ العالم من الملوك أمثاله إلا قليلا .

ذكرت آنفاً ظهير الدين بابر مقيم الدولة التيمورية أعظم الدول الإسلامية فى الهند . وكذلك ذكرت ابنه همايون .

وجلال الدين أكبر الذى أتوجه لزيارته الآن هو ابن همايون وحفيد بابر . وضع هذان له القواعد ليشيد ملكا عظيما ، ويوطد دولة ينبسط سلطانها على الهند إلا قليلا ، ويترك على الزمان سيرة

فى الفتح والعدل والحضارة والعمارة لا تزال مثار إعجاب وتعجب . ولا تزال مفخرة من مفاخر التاريخ الإسلامى .

توفى همايون بعد أن استردّ ملكه فى الهند ، وابنه جلال الدين فى الرابعة عشرة من عمره . فدبر له الملك بايرام خان فدفع عنه الطامعين ، وأخضع الثائرين ، ولم تأخذه فى إقرار السكينة ، والنظام هوادة ولا شفقة . فلما سكنت الفتن واستوسق الأمر تولى جلال الدين تدبير الملك ولما يَعدُ الثامنة عشرة . وقد حاول هذا الوصى أن يقتطع له إمارة فى أرجاء المملكة وثار على أكبر إلى أن اضطر إلى التسليم له . فأحسن الملك الشاب إلى وصيّه وخيّره بين أن يتولى منصباً عالياً فى الجيش أو يسير إلى الحج مرفّهاً فى موكب عظيم . فاختار الحج .

وكان عفو أكبر عن بايرام خان وإحسانه إليه إيذاناً بسيرة صالحة رفيقة ، سارها أكبر طول عمره .

ثبّت جلال الدين أكبر سلطانه فى أرجاء المملكة كلها . ومدّ فتوحه حتى لم يبق من الهند خارجاً عن سلطانه إلا قليل . ودان معظم الهند له واستقامت الأمور لحكمته وحكمة زمان سلطانه المديد وقد ملك أكثر من خمسين عاماً .

وكان مولعاً بالفتوح البعيدة ، واجتياز الفيافى الموحشة ، وركوب الخيل الجموحة ، واخترع نظماً للجيش وأسلحة . وكان مثالا عالياً فى قيادة الجيوش ، وركوب الأهوال . ولكن هذه الشجاعة والجرأة والفتح والسفر لم تكن إلا أقل مزاياه . فقد كان فى السلم والعمران أعظم منه فى الحرب .

سنّ من القوانين ، وخطّ من الخطط فى مسح الأرض وريها وجباية الخراج ما يشهد بسمة فكره ، وبعد إدراكه ، وقد بقيت بعض سننه متبعة فى الهند إلى هذا العصر .

وجمع هذا الرجل الأتى حوله من أدباء العالم وشعرائه وكتابه وعلمائه وفلاسفته جمعاً كبيراً حتى كان فى كنفه من شعراء الفارسية زهاء خمسين شاعراً .

وقد جاءه الصناع من أرجاء العالم من آسيا وأوروبا .

وأنشأ المدارس فى أنحاء المملكة ليعلم فيها المسلمين وغيرهم على السواء . وبنى خزائن الكتب وجمع فيها نفائس الكتب من الأقطار وافتنّ فى صناعة التجليد والتذهيب حتى أنفقت على بعض الكتب آلاف الدنانير ، وقد أبطل العادات الوحشية فى الهند مثل إحراق الزوجات بعد موت أزواجهن .

وحاول أن يُشيع المحبة والمودة والأخوة بين الناس بجمعهم على دين واحد . فألّف من الإسلام والمجوسية والنصرانية وأديان أخرى ديناً سماه « التوحيد الإلهى » وبنى معبداً لهذا الدين ودعا الناس إليه فاتبعه قليل بالرغبة والرهبة . فلما مات لم يبق على دينه أحد .

***

سرنا إلى سكندره حيث ضريح هذا الملك العجيب ، وفى النفس ثورة من ذكرياته بين سفره وحضره ، وحربه وسلمه ، وصوابه وخطئه ، إلى قياس يتردد بين الماضى والحاضر ، للنفس فيه حيرة وحسرة .

على نحو خمسة أميال من أكرا استقبلنا هذا البناء الهائل الرائع الذى تعاون على إنشائه المُلك والثراء والصناعة بضعة عشر عاماً بين عهد أكبر وعهد ابنه جهانكير . هذا المدخل المفضى إلى الحديقة الغنّاء الفسيحة التى تحيط بالمزار . ولو أن هذا المدخل وحده شيد فوق ضريح ملك عظيم لكافأ عظمته وحُسب بناء ضخماً من أبنية الملوك العظيمة . بناء يعلو أربعاً وسبعين قدماً تقوم فى أركانه الأربعة أربع منارات رفيعة تعلو كل واحدة فوق هذا البناء ستاً وثمانين قدماً . ويلقى هذا المدخلُ القادم إليه بعقد عال ضخم فيه باب فوقه عقد يشابهه . وعلى جانبى العقد الكبير وجهتان فى كل منهما عقدان (كما يرى فى الصورة) :

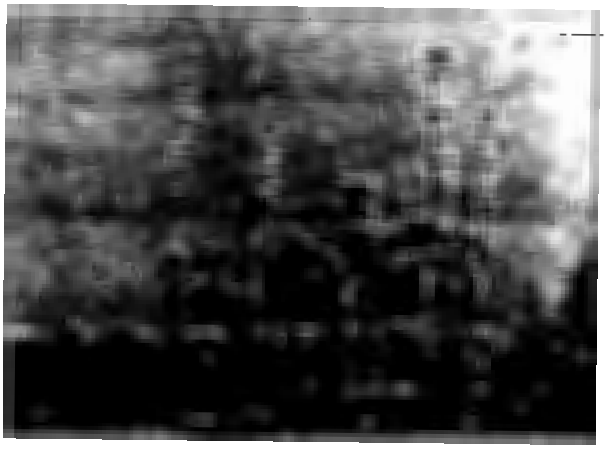

مدخل الحديقة التى فيها ضريح جلال الدين أكبر

ويفضى هذا المدخل إلى حديقة واسعة تزدحم فيها الخضرة والنضرة ويتوسطها طريق واسع مبلط فيه أحواض ومجارى مياه ونافورات فى هندسة جميلة .

ثم البناء الشامخ الرائع ، خمس طبقات ذات عقود وأبراج ، كل واحدة أكبر مما فوقها وأصغر مما تحتها كأن كل طبقة قاعدة للتى قبلها .

مزار جلال الدين أكبر شاه

صعدنا الطبقة الأولى التى تلى الأرض فهبطنا فى دهليز منحدر إلى قاعة فى وسطها صفيحة واحدة من المرمر تحتها رفات جلال الدين أكبر شاه . وقفنا نقرأ آيات على القبر ونقرأ سطوراً غير مكتوبة من وحى التاريخ وإملاء الزمان .

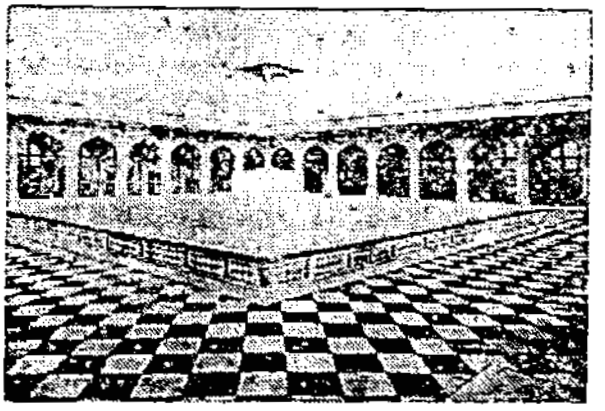

مثال قبر جلال الدين فى أعلى البناء

ثم صعدنا إلى الطبقات الأخرى حتى الطبقة العليا وهى سطح محاط بدرزين من الرخام الأبيض أبدعت فيه الصناعة شكيلا وتخريماً . وفى وسطها دكة واسعة مربعة عليها مثال القبر الذى فى بطن الأرض . وقد فجئنى هذا المنظر العجيب فما يحسب الزائر وهو يصعد فى هذه الطبقات أن يلقاه فى قمتها هذا التمثال بعد أن زار القبر فى موضعه من جوف الأرض .

ويطلع الزائر من هذه القمة على مشاهد رائعة من الجمال والجلال وعلى عبر متقاربة وعظات متوالية . فهو ينظر إلى هذا الهيكل العظيم تحار فيه العين بين عقوده وعمده وقبابه ، تتوالى طبقاته فى نظام محكم ، وهندسة عجيبة . فإذا رمى ببصره فى الفضاء مفكراً أخذته مشاهد من الأبنية الأثرية بين الشجر ، كل منها تاريخ مبهم ، وكل منها كتاب مطبق ، وكل منها مجد غابر وعبرة حاضرة . وتسحر العين على القبر وعلى عقود الداخل آيات قرآنية أجيد خطها أو نحتها على الرخام .

يقال أن أكبر نفسه بدأ هذا البناء وأتمه ابنه وخليفته جهانكير بعد أن عمل فيه البناءون والصناع عشرين عاماً ويقال إن جهانكير بناه وحده فى سبع سنوات .

ومهما يكن الأمر فقد أكمل هذا الأثر الخالد سنة ١٠٢١هـ . وقد مرت عليه حوادث وزلازل ؛ ولكنه لا يزال شاهداً بعظمة أكبر وجهانكير ، ناطقاً بما بلغت الحضارة والأبهة فى ظلال هذه الدولة العظيمة ، أكبر الدول الإسلامية فى الهند . ومن أعظم الدول التى عرفها التاريخ

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

إدارة البلديات العامة — مبانى

تقبل العطاءات بمجلس دكرنس القروى حتى ظهر يوم ١٠/١٢/١٩٤٧ عن ترميم مبانى السلخانة وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة تمغة ٣٠ مليما نظير مبلغ ٥٠٠ مليم للنسخة الواحدة خلاف أجرة البريد .

٨٣٥٦